يكمن منهجه القصصي في التقاط الحدث العارض وبناء تصوره عليه

الرفاعي .. وتجربته الإبداعية

■ قبل ان أدلف الى محتوى ورقة مشاركتي المتواضعة كتحية واجبة وليس دراسة في مثل هذا في عدن العدني عن أبرز رموزها الثقافية والادبية والفنية أود أن اقدم للجيل الذي لم يعاصر اديبنا الكبير ويطلع على اعماله لأكثر من ربع قرن بسبب اغترابه بطاقة شخصية مختصرة عن الاديب والصحافي الكبير احمد شريف الرفاعي فهو من مواليد عام ١٩٣١م في عدن.

أعماله المختلفة تحتاج إلى بحوث ودراسات لكي تعرف الأجيال الجديدة عطاء وعظمة الروّاد

أحمد المهندس

(١)

تلقى دراسته النظامية فيها .. ورغم ظروفه الانسانية استطاع ان يحقق ذاته بالقراءة والاطلاع وتطويع موهبته الإبداعية في أعمال صحفية مبكرة، عمل في المدارس الاهلية والحكومية كمدرس ثم مديرا لبعضها والتحق بالسلك الحكومي الاعلامي من خلال الحقل الصحفي والاذاعي والتلفزيوني.. غادر موطنه عام ١٩٦٩م وعاش في مدينة جدة حتى وافته المنية في حادث مروري أليم .. رحمه الله.

(٢)

كتب للاذاعة السعودية والتلفزيون السعودي الكثير من المسلسلات والتمثيليات والبرامج الاذاعية وتعد كتاباته الصحفية والأدبية والفنية مواكب زاخرة بالحيوية والنضج.

له من المؤلفات المطبوعة والجاهزة للطبع العديد من الاعمال منها على سبيل الذكر لا الحصر:

(السفاح والقمر، ملاحم وافكار، مشكلات بنات، يازمان الوصل بالاندلس ، حبيتي يا أندلس ،نساء دخلن التاريخ ،مولاي الملك الشارع) ولأن أديبنا الرفاعي كان غزير الانتاج والعطاء الادبي ومتعدد المواهب قدم لكل نواحي الابداع الانسان فلم يكتف بالعمل الصحفي بل قدم للفن وأهله أعمالا فنية غنائية كانت ولازالت من تاريخ الفن الغنائي العدني، فمن منا ينسى الجميلة بنت الاكابر كاول أوبريت اجتماعي هادف عن غلاء المهور والزواج.. وكثير من روائع الكلمات التي تغنى بها محمد مرشد ناجي والموسيقار احمد بن أحمد قاسم والرائد خليل محمد خليل والموهوب محمد صالح عزاني وعدد من الفنانين في اليمن والخليج.

كانت صور كلماته الغنائية ثرية بالمعاني الجميلة والهادفة النابعة من القلب ورغم أنه لامجال للمقارنة بين الكلمات والمعاني التي تغنت بها الفنانة العدنية رجاء باسودان قبل ثلاثين عاما ويزيد من كلمات مبدعنا الرفاعي مخاطبة جارها المتلاع:

داري هواك داري
عن قلبي باجاري
ساكن قبالٍ داري
حيرت افكاري

(من كلمات العصر العجرمي والحب نص نص ؟!)

وقد لا أذيع سرا اذا قلت لكم في هذه العجالة ان احمد شريف الرفاعي وهو سليل الاسرة الفنية العريقة .. لأنه يرتبط بصلة نسب بالعملاق الفنان ابراهيم الماس قد جرب الغناء بعد ان وجد في نفسه المقدرة وقدم اغنية ليست من كلماته بل من أشعار امير الشعراء احمد شوقي بعنوان (ياملبح اللما) ومن تلحين الموسيقار الراحل يحيى مكي وسجلها على اسطوانات عيدروس فون.. ولم ينزلها للاسواق بسبب التقاليد وبعد ان غير رأيه في الغناء.

وكان آخر لقاء لي مع الفقيد احمد شريف الرفاعي قبل وفاته بأسبوعين صدفة التقينا كما يقول المبدع لطفي أمان في رائعته الغنائية ليس على الساحل.. بل في الحي الذي يسكنه والقريب من مكتبي فاوصلته لمنزله وتحدثنا طويلا عن أعماله وطموحاته وأمل العودة للوطن الأم بعد ان رد الرئيس القائد علي عبدالله صالح له اعتباره وكرمه مع مجموعة من الادباء اليمنيين.

وافترقنا على أمل اللقاء لتسجيل ذكرياته بالصوت والصورة ليقول كل شيء عن مشواره للاجيال .. وكان سعيدا وكأنه يودعني أو يراني لأول مرة.. ولم نلتق بالطبع بعد ذلك فقد رحل عن دنيانا الفانية .. تاركا ذكرى عطرة وأعمالا خالدة كان لها أثرها في حياة الناس.

واعترف مرة اخرى بأني لا أستطيع ان أعطي أديبنا الراحل المقيم احمد شريف الرفاعي حقه في أوراق معدودة أو كلمات موجزة فمثل هذا الرائد.. يجب ان يتصدر للكتابة والحديث عنه وإنصافه المختصون من الاكاديميين في أقسام الصحافة والأدب في الكليات العلمية والثقافية على مستوى موطنه والعالم العربي.

فأعماله المختلفة تحتاج الى دراسات وبحوث ورسائل .. لتعرف الاجيال الادبية والصحفية الجديدة وحتى المختصون والباحثون عن عطاء وعظمة الرواد الذين قهروا الظروف الصعبة وصنعوا ذاتهم وحققوا لوطنهم مكانة أدبية مرموقة .

(٣)

لقد تصدرت بالنقد قبل ٢٥ عاما لمجموعة الرفاعي القصصية الأولى الموسومة بـ« السفاح والقمر» الصادرة عن الدار السعودية للنشر والتوزيع بالمملكة العربية السعودية بروح الشباب (أيامها) واخترت لها عنوانا مثيرا.

(محاولات الادباء الأولى.. هل تستحق النشر) وقلت في الاستهلال:

(الكثير من الادباء يتحفظون في نشر انتاجهم الفكري في سنوات حياتهم الأولى ،البدايات ،خاصة وان المحاولات الأولية لاتخلو عادة من الاخطاء التي يغفرها القراء لكاتبها كونها كتابة بدايات ويجب ان يشجع صاحبها لإقدامه على النشر فمعنى هذا انه يود ان يطور نفسه بمعرفته بخبرته الكتابية من خلال مايكتب عن محاولاته القصصية من نقد موجه والبعض القليل من الادباء والكتاب الذين ينشرون محاولاتهم الكتابية سواء كانت ادبية كالبحث والنقد والقصة أو حتى الشعرية يجرون عمليات تجميل ورتوش عديدة على كتابات الماضي حرصا منهم على المكانة الادبية التي حققوها بعد كفاح سنوات حتى أصبحوا أدباء ومفكرين لهم شأنهم ووزنهم .. وهم يعرفون بأن نشر كتاباتهم في الماضي وان كانوا مسرورين لها كانت بمثابة جواز مرور لأقلامهم ،فإنه في الحاضر لن تكون سوى القشة التي قصمت ظهر البعير كما يقول المثل ،فلن يقبل القراء منهم سوى مستوى معين في الكتابة ألفوها منهم وأحبوها. وعليه فلزاما عليهم اجراء تعديلات جذرية على كتاباتهم في الماضي قبل النشر.

(٤)

ان لكتابات الادباء «أيا كانوا» في سنوات حياتهم الادبية الاولى.. معزة وذكرى خاصة فهي كالابن البكر يظل أبوه يدلله حتى وإن كبر.. وقبل ان تتساءلوا ما الداعي لهذه المقدمة أريحكم فأقول بأنني أوردت هذه المقدمة قبل ان اشرع في استعراض كتاب جديد فرغت لتوي من قراءته والكتاب لأديب وفنان وصحفي ارتكب الغلطة التي يتفادى الكثير من الكتاب الوقوع فيها خاصة الادباء المخضرمين غلطة نشر نتاجهم الفكري الاول كما هو دو تغيير يتمشى مع ضروريات العصر وتوسع مدارك الكتاب والقراء الفكرية والادبية وغلطة الشاطر كما يقال بعشر خاصة ونحن نعرف بأن المؤلف ذكي).

انتهت المقدمة ولن أكرر قراء النقد لأنني شخصيا تجاوزتها.

وقد أصدر الاستاذ احمد شريف الرفاعي مجموعته الاولى كما يبدو أيامها على عجل ودفع بها للناشر والمطبعة ولم يراجعها ويستبعد قصصاً لاتمثل تجربته الطويلة في الكتابة وتفوقه على نفسه.. بالفترة التي صدرت فيها المجموعة كان الناس مشغولين فيما يسمى بالطفرة الاقتصادية والأعمال التي زادت بعد حرب اكتوبر ٧٣ وارتفاع عوائد النفط.

ولم يعجب نقدي بالطبع استاذنا الرفاعي فانبرى كعادته في الغضب والسخرية الكتابية وحاول ان يسلم رده لمشرف ملحق أدب وأدباء بجريدة المدينة الاديب القاص الاستاذ سباعي عثمان رحمه الله. الذي نوره بحكم العلاقة بأن العبد لله سيكون سعيدا جدا برده والنشر.. ولكن هل لدى الاستاذ طاقة وصبر على التحمل لردي وطوله.

وعندما طلب الاستاذ الرفاعي ايضاحا للمعنى قال له سباعي .. إن النقد يسعدني وبأنني اكثر منه لبشة وهجوم ونقد وسخرية فما كان من اديبنا الكبير إلا ان سحب رده وتعارفنا بعد ذلك عن قرب وسُعدت بمعرفته وصداقته واستاذيته وان كان بين الحين والآخر ينسى هذه الصداقة عندما يغضب من بعض كتاباتي عن اعماله الاذاعية.

(٥)

وقد غفر لي الله كما قال لي بأسلوبه الساخر ضاحكا عبر الهاتف ماتاخر ومانتقدم من ذنوبي في حقه بعد ان دافعت عنه بإخلاص عندما تعرض له بالنقد المرفوض البعيد عن ابجديات النقد أحد غلمان الصحافة الجدد الذين لايعرفون قدر الرواد ولم يطلعوا على ماقدموه من عطاء وفكر انساني.

وفي مجموعته القصصية الثانية الموسومة بـ«واللخوف عيون» الصادرة عام ١٩٨٣م من مطبوعات تهامة كان الرفاعي حريصا على تفادي كبوات المجموعة الاولى فقدم فيها ١٩ نصا بين القصة بمعناها الفني المتعارف عليه.. والحوار أو التمثيلية القصصية التي برع فيها كأحد رواد الدراما العربية.. ويعترف الرفاعي بأنه كتب هذه المجموعة في أوقات زمنية متفاوتة بعضها في عدن والبعض الآخر في جدة.. وكأنه يقول للنقاد أمثالي وبلهجته العدنية المحببة التي لم تغيرها سنين الغربة (حسك عينك) تغلط معي .. ولأنه عربي الأصل فيوضح صراحة ان بين عدن وجدة الكثير من الملامح المشتركة في الأرض والوجود والوجوه والسمات والاعماق وأسلوب لحياة وكذلك البناء الاجتماعي والنفسي للنماذج البشرية مع اختلاف بسيط في العادات والتقاليد الاجتماعية.

ومنهج الاستاذ احمد شريف الرفاعي في كتابة القصة القصيرة يكمن في التقاط الحدث أو العارض وبناء تصوره عليه وأعطائه من أحاسيسه وأصداء نفسه والمزاوجة بين احاسيسه تلك وبين حقائق الحياة.

فهو يهرب من التعقيد والتداخل الذي يربك القارئ .. ويهرب من التفاصيل الزائدة التي تأخذ القارئ الى متاهات فلسفية وعنعنات فكرية ويقف من النفس البشرية موقفاً بسيطا ليس فيه لبس ولاغموض ولاتعقيد.

لذلك نجد ان جميع نماذج قصصة أناس بسطاء واضحو المعالم الانسانية يجلبهم بأسلوبه الابداعي الكتابي المتمرس الى ساحة الورق كما هم يقدمهم بلا رتوش فالقصة القصيرة في مفهومه ومنهجه لمحة من الحياة.

(٦)

فالرفاعي شعبي الهوى اذا صح التعبير- بمعنى- أنه يختار شخوص وأبطال وحكايات قصصه من واقع الحياة وبسطاء القوم.. فهو ينتمي الى طبقة بالكاد تجد قوت يومها وتشغلها هموم الحياة ومتطلباتها.

وهو بارع في التقاط نماذج من هذه الفئات الانسانية بخبرة الاديب والانسان المعاصر المنتمي الى جذور الأرض.

ويعطيها على حد تعبيره من الشعر الشيء الكثير ويهيم بالنفس المعذبة الشفافة المترعة بالجمال والرواء .. ويتعامل مع نماذج قصصه ببساطة متناهية وحب ويركز على الحدث ويرويه كواقع.

فهو لايتعامل مع أشخاص قصصة تعاملاً معقدا ولايجعل القصة بمثابة عملية تعذيب للقارئ والمتابع لإنتاجه القصصي من خلال التفاصيل الدقيقة التي تبعد الحدث عن أصوله وجذوره الاجتماعية والنفسية.

لذلك تأتي الإبتسامة والسخرية للشخوص وأبطال قصصه عفوية.. ويأتي الحوار بسيطا وشاعريا في المواقف العاطفية.

أحمد شريف الرفاعي في أعماله القصصية وحتى الدرامية الأقرب الى عالم القصة لأنها تحمل ملامحها وتقدم بأسلوب العصر السريع وعبر الأثير كنماذج انسانية لإيصال فكرته الى أكبر شريحة ممكنة لاتستطيع ان تتابع انتاجه المكتوب والمطبوع متمشيا مع تقنيات العصر ومتطلباته.

وساختار قصة (والله زمان) التي ضمتها مجموعته الاخيرة (وللخوف عيون) كنموذج للدلالة على أسلوبه ومنهجه في الكتابة القصصية وايصال افكاره بأسلوب سلس بعيدا عن التعقيد ومباشر.

ففي كل أعماله القصصية يقدم الرفاعي كرائد في الكتابة في اكثر من مجال اسلوبا فريدا ومميزا في السرد القصصي .. هاجسه الوطن الذي وان فارقه جسدا ومرغما وفي ظروف صعبة إلا أنه لم يفارقه وجدانا فلا زال يسكن أعماقه وكل تفاصيل حياته.. يتنفسه ويعيش معه لحظة بلحظة.

(٧)

ومن عنوان القصة تستطيع كقارئ أو متابع مهتم بأسلوب الرفاعي القصصي ان تعرف انه يقصد تصوير واقعة جرت فصولها في زمن غير بعيد وإن اصبحت من الماضي.

وكخبير في التفاصيل الفنية للحياة الانسانية والواقع يقدم لنا القاص صورة من قريب لحال فنان كان ملء السمع والبصر واسما لامعا له جمهوره.. ويسرد لنا كيف كانت تحف به في زمانه الأفراح والليالي الملاح وتنطلق من حوله الزغاريد:وتلتف من حوله جموع الرجال وتلقي النساء عيونهن عليه من المشربيات والنوافذ في الرواشين وينسى الناس نفوسهم ووجوده معه.

كانت لياليه الغناء المتضوعة بالبهجة اعراسا لاتنتهي ومهرجانات لاينطفئ لها ألق.. فالناس يجيئون من كل حدب وصوب ليسمعوه وتقطع اقدامهم عشرات الاميال من الضواحي البعيدة من اجله .. اذ لم يكن قد اشيع استعمال السيارات عام ١٣٤٤ هجرية).

وصف دقيق وبسيط العبارات لحال فنان من العهد القديم كان نجم السهرات والأفراح سرعان ما انقلب عليه الزمان بسبب العمر والزمن الذي لم يعد زمنه.

ومع هذا لم يستسلم ويراتح ويتقاعد بعد ان عجز عن مجاراته وتطوير نفسه.

اختار الرفاعي وهو يسرد لنا قصة هذا الفنان الكبير السن والمقام والذي جار عليه الزمان اسما شائعا في تلك الحقبة الزمنية في عدن .. فقد كانت القصة عن فنان من موطنه. وربما كتبها في عدن أو جدة في سنوات حضوره الأول والأغلب في جدة واختار له اسم (قحافة) وهو اسم ساخر ويستعمله أبناء البلد متى ما أرادوا السخرية من أحدهم.

(٨)

(ولم يشأ قحافة ان يعترف بالهزيمة التي لحقت به بعد هذا المجد العريض.. ولم يشأ أن يسلم بانه قد أخذ من الزمان كفايته مالا وشهرة ونبوغا وان ما استنفده من الاضواء يكفي مخزونه من الطاقة شمسا بحالها).

وينقلنا الرفاعي بأسلوب الفلاش باك.. الى تاريخ هذا الفنان ويقدم لنا ملامح من حياته وأعماله الغنائية التي كانت منتشرة بعد ان تجاوزت مبيعات اسطواناته ثلاثمائة الف اسطوانة من اسطوانات الشمع الاسود ليصبح مطرب الجزيرة العربية الأول بلا منازع (سبق فنان العرب محمد عبده) بعد ان صُدرت اسطواناته الى جميع انحاء اليمن والجزيرة والخليج والجاليات العربية في الهند واندونيسيا.

ولكن قحافة لم يعجبه التجاهل والفشل وقرر ان يتحدى الجميع ليثبت لهم انه لازال الأول في عالم الغناء.. بعد ان أتاح له مدير التلفاز المحلي إحياء حفلة على الهواء مباشرة.

(واقترب اليوم الموعود الذي يذاع فيه الحفل التلفزيوني المرتقب ويكون من بين نجومه المتألقة نجم قحافة.. الذي سيبرز من جديد كمطرب للاعراس والافراح صوتا بزكل اقرانه فيما مضى وسيبرز قرناؤه من الجيل الذي تلاه وتلك هي البداية ياقحافة) ولم يستطع بالطبع ان يجاري قحافة العصر فقد مضى قطار العمر وتغير الحال..

وكان بحركاته المضحكة أمام كاميرات التلفزيون التي لم يعهدها ويقف امامها لأول مرة رغم تاريخه الفني الطويل.. موضوع سخرية الفرقة والجمهور.

(٩)

وكانت ذروة المهزلة حين بدت من يده اليمنى حركة الى الخلف أطاحت بنظارة عازف الكونترباص الى الوراء وكاد ينقلب على كرسيه .. مشهد لم يستطع معه العازفون في الفرقة ان يكتموا ابتسامتهم وضحكاتهم الحبيسة وهو مستمر في الاندماج بغناء كانه قصف الرعود) ويتوقف بالطبع عن الغناء.. ويتلفت الى الوراء ويقول بغضب مر للفرقة وعلى الهواء مباشرة:

(أتضحكون سخرية مني.. حسنا اضحكوا ولكن أسألوا امهاتكم كيف كن يخرقن طرابيل السرادقات في المخادر من وراء الحجاب ليتفرجن على هذا الذي تضحكون منه اليوم).

قصة واقعية لربما عرف بعضكم بطلها.. فقد كان فعلا فنانا ملء السمع والبصر بمنلوجاته الهادفة الى حاربت الاحتكار الاجنبي في مواتير أشكال وألوان وغنى للإصالة ولباس آخر زمان.. ولكن الرفاعي أراد من خلال سرد قصته بأسلوبه الإنساني الرائع.. وصور من خلال أدق التفاصيل والمشاعر التي مرت عليه في زمن النسيان والجحود.. والتي لم يستطع ان يتقبلها كواقع.

وكما أشرت في بداية الكتابة والكلام ان اعمال الاستاذ احمد شريف الرفاعي الإبداعية تحتاج الى دراسة وافية وصادقة وعدم تجاهل من الدارسين وكبار الكتاب والادباء واكثر من ندوة ومحاضرة ونقاش.. وأول الغيث هذا التكريم كبداية طيبة تسجل لفرع اتحاد ادباء عدن لأحد أهم مبدعيها..

وقبل الختام أود أن أنتهز فرصة وجود معالي محافظ عدن الذي بدأ مشواره مع المسئولية بخطوات انسانية تحسب له بزيارة الادباء والفنانين في عدن وتقديرهم والاهتمام بأمورهم.. أن يتبنى معاليه فكرة أطلاق اسماء الرواد من الادباء والفنانين على شوارع وميادين عدن ومدنها الرئيسية تخليدا وتقديرا لهم نظير ماقدموا من عطاء وفكر انساني لوطنهم.

ولتكن البداية مع فرسان هذا المهرجان والتكريم.. أكرر الشكر لكم وإتاحة الفرصة لأكون بينكم الغائب الحاضر من خلال حروفي وكلماتي هذه بجهد المقل وكل مهرجان تكريمي وأنتم بخير.

* ورقة مقدمة في المهرجان التاريخي للاستاذ الراحل أحمد شريف الرفاعي الذي اقامه بعدن فرع اتحاد الادباء والكتاب اليمنيين.

*** كاتب سعودي**

حمامة الجنة

علي هلال القحم

إلى العالية في جبال الغياب «أمي»

ياهمسك العالي هديلا
في تفاصيل اغترابي
دفق شلالٍ يسافر
في السحاب
ياقلبك المهور
بالكافور
والذهب المزنبق
والمعلق في السماء
قصيدة أبدية
للحب
مفتاحا لباب الله
لحنك
ياتسابيحي
وأوتار الرباب
أمي
وتحملني السماء
الى سماء
في اعالي الروح
تسكبني بليل
الله أسحارا
ترتل غربتي
عني صلاة الماء
أمي
حين تغدو الريح أوتاري
أموسق صوت أمي
آية
في بوح أسفاري
تطهرني من الأحزان
والترحال
والزمن اليباب
•••
ياأنت
يامعراج قلبي
في قوام الضوء
اني اليوم أسري بي
اليك
فقبلي عيني بوجهك
دثري روحي
بأهداب الحنان
أماه..
ضاق بي المدى
والأرض ضاق بها الصدى
آمنت انك تخلقيني
الآن
وترحلين الآن بي
في صافنات الوجد
لجنةٍ قزحية
من ماء صوتك
عبقرت انغامها
في كوكب علوي
ياقوتا خزاميا
يصلي فيه قلبي
وسط عينيك اليتيمة
ركعتين
لكأنها عيناك
من شمع النجوم
بوجه أيامي
تقبل مهجتي
واليوم تغزل للعصافير الشريده
قبلة
تبني لآفاق التجلي
كعبتين
أمليكة في لحنك الضوئي
والقروي.. أغنية
تجدولني بعشب الريح
فيروزا
تراقص دمعة خضراء
في أغصان قلبٍ منهكٍ
بالحبِ
والحب المدان
أمي..
وأرتشف الصدى
والغيب يحلو بالقصيدة
حين تلثمني السواسن
واشتياقك
دمعتي
آن احتراقي
راحلا عني
بوجه الأفق
إكسيرا سماويا
وما تتلو طيور الروح
أمي
سدرة من أقحوان.